

الأماكن والسياقات

ديفيد لي

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

تنشأ المعرفة الفكرية ، كغيرها من الظواهر الاجتماعية ، من تقاطع الخيال والممارسة والسياق . في هذه المقالة القصيرة ، سأتناول الأماكن و(بعض) الأشخاص الذين ساهموا في تشكيل مساري الأكاديمي . تُجسّد هذه السيرة الذاتية توجهي البحثي في تتبع العلاقات بين المكان والهوية ، وتوسيع نطاقه ليشمل تكويني كجغرافي اجتماعي وثقافي.

التأثيرات المبكرة: من سوانزي إلى وندسور

أين تنتهي البيولوجيا ويبدأ السياق الاجتماعي؟ هل كانت دوافع الحمض النووي أم أن بعض التوافق القبلي هو الذي فرض على عائلتي الممتدة دراسة الجغرافيا لخمسة من أصل سبعة طلاب جامعيين حتى جيلي؟ وهل كان جمع الطوابع في الطفولة - كما لاحظ آخرون - مؤشرًا مبكرًا على استعداد جغرافي - استجابةً لأنماط موروثه ، أم لفرصة (هدايا والدي العرضية من قباطنة سفن أجنبية في موانئ جنوب ويلز)؟ وكيف تقاطعت فترة المراهقة المنشغلة بالرياضات الجماعية مع إدراك التزامن المتكرر بين الرياضيين الجامعيين والدراسات الجغرافية؟ في هذه التصادمات والتواطؤات المُسلم بها ، تبلورت تركيبة أوسع ، مما دفع إلى اتخاذ مسارات معينة بدلاً من أخرى ، ونظمت بشكل تراكمي مسارات أكثر وأقل احتمالاً .

من وندسور إلى أكسفورد: قوة التوجيه

مع بلوغي سن المراهقة ، اكتسبت بعض التأثيرات وضوحًا أكبر . لقد كان من حسن حظي أن ألتقى تعليمي على يد معلمين / مرشدين رائعين ، بمن فيهم روي يابسلي وكولين بروك في مدرسة وندسور للقواعد ، وبول باجيت في كلية جيسوس بأكسفورد ، وبيتر جولد في جامعة ولاية بنسلفانيا . لولا توجيههم التكويني والخيالي ، لكانت النتائج مختلفة . لقد حوّلت تأثير كولين الكاريزمي عن التاريخ ، واتجه نحو الجغرافيا كمادة جامعية ؛ وأشعل بول اهتمامي بالجغرافيا الاجتماعية ، كما فعل مع كثيرين غيري (كلارك، ١٩٨٤) ؛ بينما أنهت رسالة غير متوقعة من بيتر عملياً مسيرة مهنية محتملة كمخطط حضري في بريطانيا ، وقادتني إلى التركيز على أبحاث المدن الداخلية في الولايات المتحدة الأمريكية أولاً، ثم كندا.

وقد قدّم هؤلاء المرشدون مساهمات مميزة . في المدرسة الثانوية ، كانت الدراسات الميدانية عنصراً أساسياً من المعرفة ، وقد خلقت المسيرات القسرية في بيئات حوض نهر التايمز - عبر التلال الطباشيرية، وعبر الوديان الطينية، وصولاً إلى الأراضي الرملية - درساً تربوياً مقنعاً في الارتباط المكاني، وعالم منظم يجب اكتشافه. استمر هذا التعليم في الجامعة ، مع رحلات ميدانية بين المظاهر الطبيعية المتنوعة والمتغيرة بسرعة في منطقة أكسفورد ، ورحلات أطول إلى الأطراف السلتنية الدرامية لأوروبا ، ومظاهر كونيمارا الطبيعية ، والمرتفعات الاسكتلندية التي امتدت عبر مفهوم المسكونية إلى أقصى حدوده ، حيث حجب الجمال الأخاذ هبةً ضئيلةً للاستيطان البشري حتى بدون التدخل التاريخي من ملاك الأراضي الظالمين .

كانت ذروة شهادة أكسفورد في تلك الأيام تفسيراً إقليمياً لمنطقة صغيرة نسبياً ، وكان اختياري ، الذي تم استكشافه أثناء وجودي في موقع بطولة هوكي الحقل ، منطقة في أقصى غرب ويلد من ساسكس في جنوب إنجلترا . في هذه المنطقة الريفية من القرى والبلدات الصغيرة ، ترافق ظهور تطور سريع للتنوعات الجيولوجية مع جغرافية بشرية متعاطفة لحدود الأبرشيات ، واستخدام الأراضي ، والاستيطان ، وهو مشهدٌ عاميٌ ترسخت معالمه على مر القرون ، وتجاوز إلى حد كبير تدخلات التحضر الصناعي ، وتعرض للتحجر من قبل المتقاعدين والمسافرين لمسافات طويلة إلى لندن ما بعد الصناعية ، الذين سعوا ، بصفتهم من رواد التجديد الريفي ، إلى الأصالة الواضحة للحفاظ على التراث التاريخي .

كان من خلال قيامي بهذه الدراسة الإقليمية أن أفنن بالجغرافيا ، بشعورٍ غريزيٍّ مُحيط . كان ركوب الدراجة في الطرق الريفية في أوائل الصيف ، من قرية إلى قرية ، ومن بلدة صغيرة إلى أخرى ، مُراقباً طبيعة الأرض ، ومُشاركاً في محادثاتٍ عابرةٍ وشبه مُوجهة ، بمثابة استقبالٍ حسيٍّ للأصوات والمظاهر والروائح ، وللوجود الجغرافي الملموس ، بالإضافة إلى تحدٍّ فكريٍّ لحل المشكلات . لم يُرسخ العمل (إن وُجد) قناعةً بأهمية وفوائد الدراسة الميدانية فحسب ، بل أرسى أيضاً مبدأً أساسياً لمركزية العمل التجريبي في إرساء الانتظامات الجغرافية والتطوير المفاهيمي ، وهو بيانٌ قد يبدو عادياً لولا اتجاهات الجغرافيا البشرية في الأربعين عاماً الماضية نحو تفضيل التجريد النظري الذي تحرر من مُشقة المسألة التجريبية .

فكما اكتشفتُ مراراً ، لا يخلو العالم التجريبي من المفاجآت ، فقد يسكن مصرفيو لندن أكواخ عمال الزراعة في ساسكس ، كما قد تكون قصور المليونيرات في فانكوفر موطناً لأسر مهاجرة ذات دخل كندي أقل من خط الفقر (لي، ٢٠٠٣) . غالباً ما يُعيد المنظرون الذين يتخلون عن العمل التجريبي إنتاج افتراضاتهم المسبقة كنتائج ، وبالتالي يفقدون فرصاً كبيرة للتعلم . وقد برز مبدأً ثانٍ . فالدراسة التفسيرية تكاملية ، ومهمة التركيب تُشجع على استخدام مفردات فكرية دقيقة ، من "أكثر أو أقل" و"معظم الوقت" . كما أنها تسمح بالطوارئ والاستثناءات . على النقيض من ذلك ، قد تكون المنهجية التحليلية ، ولا سيما تلك التي وصفها سي. رايت ميلز (١٩٥٩) بأنها تجريبية مجردة ، أكثر ميلاً إلى التركيز على خطوط السببية .

بالطبع ، واجه التقليد الذي أصفه انتقادات لاذعة خلال الثورة الكمية . وكانت هذه الانتقادات في محلها جزئياً ، إذ كان التفسير الإقليمي يمكن أن يصبح بسهولة نمطياً ومفاهيمياً . في أكسفورد ، أواخر الستينيات ، سادت حماسة كبيرة عندما وُزع الطلاب نسخاً ممزقة من رسالة جذرية بحق في صفحات الأعداد الأولى من مجلة العلوم الإقليمية (بارنز، 2004) ، مما عزز فكرة الجغرافيا الأكثر ابتكاراً مفاهيمياً ، الصادرة عن أقسام في كامبريدج وبريستول ، وفي مناطق أبعد مثل لوند وشيكاغو وبنسلفانيا وواشنطن. لذلك ، عندما وصلتني في ربيع عام 1968 دعوة غير متوقعة للحصول على درجة الدراسات العليا في بنسلفانيا ، انطلقتُ كالفراشة نحو ضوء ساطع .

بنسلفانيا: صدمة الجديد

كانت جامعة ولاية بنسلفانيا عام ١٩٦٨ ، بل أمريكا عام ١٩٦٨ ، أماكن استثنائية للتحفيز المفرط . كانت حرب أهلية تدور رحاها في فصول الجغرافيا بجامعة ولاية بنسلفانيا ، وكان لدى الشباب الأتراك الأربعة - رون أبلر ، وجون آدمز ، وبيتر غولد ، وتوني ويليامز - حماسة الشباب ورائحة النصر. وقد تعزز زخمهم بفضل الحضور المحفز لديفيد هارفي . وجوليان وولبرت كأستاذين زائرين ، وذلك من خلال تعيين روجر داونز كمدرس متميز ، وزيارات غونار أولسون وليز كينغ ، وهما عضوان إقليميان آخران في "مجتمع الجغرافيين الرياضيين بين جامعات ميشيغان" ، واللذين كانا يحضران دورياً لإجراء نقاشات حيوية في مقهى القسم في شارع الكلية . كان بيتر غولد هو من حرك هذه الأحداث ، وكان له حضور فكري استثنائي (هاجيت، 2003).

لكن الولايات المتحدة كانت أيضًا على شفا حرب أهلية عام 1968 ، مع تمرد في المدن الداخلية وأعمال شغب في حرم الجامعة . ولعل أبرز ما في الأمر هو الطريقة التي نادرًا ما تقاطعت بها هذه الساحات المضطربة للعلم والوطن . من بين أعضاء هيئة التدريس في جامعة ولاية بنسلفانيا ، كان ويلبر زيلينسكي ، أحد أعضاء الحرس القديم ، هو المعارض الأكثر علنية لحرب فيتنام والظلم الداخلي في المجتمع الأمريكي . في هذه الأثناء ، كانت دورات المحاكاة ، وسلاسل ماركوف (وهي مواضيع طلب الطلاب من ديفيد هارفي تدريسيها!) ، والبرمجة الخطية ، والارتباط القياسي ، وما إلى ذلك ، تشترك في هذا . فقد كانوا منشغلين بعالم داخلي من النظرية ، بالتقنية والمنطق ، بدلاً من عالم خارجي من الناس والمكان .

في الواقع ، ولخيبة أمني (وعدم تصديقي في البداية) ، اكتشفت أن واجبات المقررات الإبداعية المُصممة لـ "تعلم التقنيات" تتكون من مجموعات بيانات خيالية مُصممة لإظهار قوة المنهج . يبدو لي أن هذا التعظيم للنظرية كونها الخير الأعظم مُضللٌ جوهريًا ، ولا يقلُّ ذلك سوءًا عن البنيوية ، والنظرية الاجتماعية ، والنظرية الثقافية ، وهي بعض الأطر التي تلت الوضعية المنطقية في جامعة ولاية بنسلفانيا . المسألة بالطبع ليست الحاجة إلى النظرية ، وهو أمر بديهي ، بل تعظيم النظرية الذي قد يجعل البحث العلمي منطويًا على الذات بشكل مفرط ، وفي أسوأ حالاته ، نوعًا من برامج العمل الفكري .

يُمثل كتاب زميلي جيرري برات الجديد ، "النسوية العاملة" (2004) ، توازنًا أفضل ، إذ يُعنى بالعمل على النظرية ، بل وبالانضال من أجلها ، في مواجهة مفاجآت الأدلة الصارخة ، مع أنني أظن أن ميلي الشخصي قد يكون إلى رؤية نظرية أقل وضوحًا وسردًا تجريبيًا أكثر شمولًا . في جامعة ولاية بنسلفانيا ، اكتشفت المدينة ، من خلال دورات مع جون آدمز ، وخاصة جوليان وولبرت ، وهو زائر من قسم العلوم الإقليمية في جامعة بنسلفانيا ، الذي دعاني إلى منزله في ضواحي فيلادلفيا لقضاء عطلة نهاية أسبوع ، حيث سافرنا بالسيارة عبر شمال فيلادلفيا وشهدنا المساحة الواسعة لما كنا نسميه آنذاك ، دون تمحيص ، "الحي الأسود" .

من خلال وظيفة صيفية في برنامج يعادل شهادة الثانوية العامة في الجنوب الأمريكي ، دخلت مؤخرًا عالم العلاقات العرقية الأمريكية المذهل ، وقد غدّى تشجيع وولبرت أخلاقياتي الدينية الخاصة بالعدالة الاجتماعية ، وأدى إلى دراسة إثنوغرافية لجزء من شمال فيلادلفيا ، والتي أصبحت أطروحتي للدكتوراه . لقد سبق لي أن تأملت في القضايا النظرية والمنهجية والأخلاقية المرتبطة بهذا البحث (لي، ١٩٨٨؛ لي وماونتر، ٢٠٠٠) ولن أفعل ذلك مرة أخرى . ومع ذلك ، ثمة نقطتان تستحقان التكرار . فكما هو الحال مع جميع الأعمال البشرية ، كانت دراستي ، جزئيًا ، نتاجًا للبيئة الفكرية والاجتماعية السائدة في ذلك الوقت ، وتكاملاً بين فاعلية المؤلف وسياقه الشامل .

في قراءتي لها اليوم ، ما تقادم في الرواية هو الإطار المفاهيمي المزدهم الذي يُحيط بالدراسة ، بينما ما نجا هو تفسير ممارسة الحياة اليومية في بيئة من القيود والضغوط المزمّنة . استنتاجي هو أنه يجب علينا التمسك بأدواتنا المفاهيمية بحذر . ثانيًا ، على الرغم من كونها دراسة إثنوغرافية ، فقد تضمنت الدراسة تحليلًا كمياً متواضعًا لاستبيان حي . في حين أن الإثنوغرافيا أصبحت منهجية شائعة بين الجغرافيين البشريين في العقد الماضي ، إلا أن شكلاً من أشكال النقاء المنهجي ساد دائمًا ، مع القليل من السعي لتحقيق أي شيء ، إن وُجد . لكن البيانات النوعية ، هذا الميل يستبعد من السجل الأكاديمي مجموعات البيانات الكبيرة القيمة التي يمكن أن تلقي الضوء على العلاقات العامة من خلال إشراك عينات أكبر بكثير مما هو ممكن في الدراسات الإثنوغرافية . أفضل استراتيجية أكثر فوضوية للتثليث ، مبنية على عدة مواقف منهجية ، بدلاً من نموذج أنقى يُفضّل نقطة أساسية منهجية واحدة.

فانكوفر: تأملات في الموقع

الانتقال إلى فانكوفر (مثل الانتقال السابق إلى بنسلفانيا) دليلٌ على قوة الروابط الضعيفة ، فكما أرسلني خطابٌ مفاجئٌ إلى الولايات المتحدة ، فإن لقاءً عابراً في ممّرٍ جعلني أعيد النظر في الوضع الذي لا يُصدّق لعدم عودتي إلى المملكة المتحدة بعد دراستي العليا . وصلتُ إلى فانكوفر عام ١٩٧٢ إلى بيئةٍ مؤسسيةٍ ووطنيةٍ وحضريةٍ مختلفةٍ تماماً عما عرّفته على الساحل الشرقي . كان قسم الجغرافيا الطبيعية والثقافية والتاريخية في جامعة كولومبيا البريطانية (UBC) يتميز بنقاط قوة في الجغرافيا الطبيعية والثقافية والتاريخية ، وكان يرى نفسه البديل الفكري للابتكارات الكمية في سياتل وبنسلفانيا وتورنتو وأماكن أخرى.

عُيّن في جامعة كولومبيا البريطانية في العام نفسه ماروين سامويلز ، الذي جسّد ، مثلي ، التعددية في قسم يُفترض أنه كمي من خلال كتابة أطروحة بالاشتراك مع آن بوتيمر في جامعة واشنطن حول الجغرافيا والوجودية . أرادت جامعة كولومبيا البريطانية استعراض تعييناتها الجديدة ، فطلبت مني ومن ماروين ابتكار عنوان لمقال مزدوج يُعرّفنا على الجغرافيين في المنطقة . توصلنا إلى عنوان "معنى الفضاء" ، وقدمنا أوراقنا البحثية إلى اجتماع محلي للجمعية الكندية للجغرافيين في نوفمبر 1972. ومن تلك الجلسة ، وما تلاها من نقاشات مثمرة ، وُضع تصور لمجلد "الجغرافيا الإنسانية" الذي صدر بعد ست سنوات.

من نواحٍ عديدة ، فإن الموقف الذي حددته في مقالي في ذلك المجلد هو موقف اتبعته في معظم أبحاثي منذ ذلك الوقت ، بما في ذلك غزواتي في مجالات نظرية مثل الفاعلية البشرية ، وما بعد الحداثة ، والعولمة ، والتي تميل إلى العمل انطلاقاً من الافتراضات نفسها (على سبيل المثال ، لي ، 2004). تختلف بعض الشيء ، وتُمثّل إرثاً واضحاً من دراسات الدراسات العليا ، عن المشاريع التي استخدمت إحصاءات بسيطة لفحص العلاقات في قواعد بيانات أكبر (مثل لي وتوتشينر ، 2001) . إلى جانب تحليل قواعد البيانات ، كانت الرسالة الثابتة هي الاهتمام بالمشاريع البيّناتية للحياة اليومية بين الجماعات التي تشغل أماكن حضرية - أفعالٌ محدّدة السياق بتأثير جماعات أخرى (وكلاء الدولة ، أو السوق ، أو جماعات أخرى في المجتمع المدني) ، وأيضاً من خلال مجموعة أوسع بكثير من العمليات السياقية ، التي تشمل علاقات يمكن تلخيصها في مفاهيم مثل ما بعد الصناعة ، والتعددية الثقافية ، والليبرالية الجديدة .

هذا الموقف انتقائي منهجياً ونظرياً ، مستنيراً بالنظرية ولكنه غير مقيد بها ، ويسمح للمفاجآت في العالم بإعادة تشكيل الأجندات المفاهيمية . يُعدّ مراعاة الموقعية ، وعد الوضع الأكاديمي أمراً مفروغاً منه ، لبنة أساسية في العمل الذي يرصد التضمين الاجتماعي والثقافي (وليس التحديد) لجميع جوانب الحياة . بعد حوالي 20 عاماً من البحث في الجغرافيا الاجتماعية والثقافية للمدن الكندية ، ودراسة قضايا مثل تنظيم الأحياء السكنية ، والسياسات الحضرية ، وتغير أسواق العمل والإسكان (وخاصة التحديث الحضري)، أُتيحت لي في منتصف التسعينيات فرصة مختلفة تماماً : إنشاء شبكة متعددة التخصصات من الباحثين في مجال الهجرة والتحضر ، وهي مبادرة تُعرف باسم مشروع متروبوليس .

كنت قد انتهيت للتو من تأليف كتاب يجمع أعمالِي في التحديث الحضري (لي ، 1996) ، وكنت في مرحلة مهنية حيث كان إعادة التوجيه الهام موضع ترحيب . أنشأ اتحاد من إدارات الحكومة الفيدرالية أربعة مراكز بحثية في جميع أنحاء كندا ، مع توفير ست سنوات من التمويل المضمون ، جُددت لاحقاً لخمس سنوات أخرى . كانت الشراكة من السمات المميزة لمشروع متروبوليس ، والتي شملت علاقات مع مختلف مستويات الحكومة ، والمنظمات غير الحكومية ، وممثلي المجتمع ، وشبكة دولية تضم ما يقرب من 20 دولة . بصفته أحد مديري مركز فانكوفر (RIIM) من عام 1996 إلى عام 2003 ، انتهت حياته كباحث منعزل تقريباً بشكل مفاجئ . في حين أن الجهات الراعية الحكومية تُحدد مواضيع السياسات العامة ، تُوجه الأموال من خلال مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية والإنسانية ، ويتمتع الباحثون بحرية كبيرة في تحديد مواضيع

محددة (ينظر موقع مركز فانكوفر الإلكتروني، www.riim.metropolis.net). لم تُروِ القصة الأوسع لمشروع متروبوليس بعد ، ولكنه أثبت أنه نموذج مثير للاهتمام للبحوث ذات الصلة بالسياسات ، والإثراء متعدد التخصصات والدولي ، والمشاركة مع الحكومة والمجتمع . يُعد مشروع "متروبوليس" مثالاً على **الدعوة الحالية للجغرافيين ليكونوا أكثر نشاطاً في أبحاث السياسات العامة** (ديكين، ٢٠٠٤).

ومن أبرز الفرص المتاحة أفق التمويل المستقر الذي وفر موارد تطوير مهني كبيرة لأبحاث الدراسات العليا . ولم يستفد الطلاب من أموال الأبحاث فحسب ، بل استفادوا أيضاً من إمكانية الوصول إلى شبكة من الموظفين والبيانات والفرص الميدانية ، ومن تواصلهم مع بعضهم البعض . وانعكاساً لاهتمامات المشروع ، نتجت عنه مجموعة كبيرة من منشورات الطلاب (بما في ذلك لي وسميث، ٢٠٠٠؛ روز، ٢٠٠١؛ ووترز، ٢٠٠٢؛ ماونتز، المراجع، ٢٠٠٣؛ تيو، ٢٠٠٣) ، ومعها جيل جديد من الجغرافيين الاجتماعيين الذين يدرسون العرق والمدينة الإثنية والهجرة في المدينة .

الخلاصة: الاستمرارية والتغيير

قد يبدو قضاء مسيرة مهنية كاملة في قسم واحد فشلاً للخيال الجغرافي . ومع ذلك ، ليس هناك مزايا في ترسيخ الاستمرارية في مكان ما فحسب ، بل إن الأماكن التي نشغلها تخضع للتغيير وتظهر متعددة الأوجه ، فخلال دورة الحياة ، ينتقل المرء من مواقع الشباب - وسط المدينة ، والشقق السكنية ، مع السفر المستمر إلى مواقع الترفيه والتعلم في جميع أنحاء المنطقة الحضرية - إلى بيئات حضرية مختلفة كوالد ومواطن يشارك في أنشطة الأطفال والبرامج المؤسسية . علاوة على ذلك ، تتغير المدن (والدوائر) من حولنا.

في عام ١٩٧٢ ، أُبلغت أن فانكوفر مدينة شبه بريطانية ، تضم البريطانيين ، والكريكييت ، والطقس المعتدل ، وبالفعل في أوائل السبعينيات ، رُفِر العلم البريطاني على جميع المباني العامة . بعد فترة من ذلك العقد ، انتهت هذه الممارسة ، ولن يُطلق أحد اليوم مثل هذا التصنيف العرقي في مدينة ينحدر 80% من جيل المهاجرين الكبير فيها من آسيا ، وحيث يبلغ عدد السكان ذوي الأصول الصينية وحدهم نحو 400 ألف نسمة . لقد اندمجت إلى حد كبير مع المدينة ، مما أدى إلى إعادة تشكيل جديدة ، وإن لم تكن نهائية ، للهوية والمكان.